مدرسة الأحزاب

ملخص
المحاضرة التاسعة

المحاضرة التاسعة

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ...

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا(59)

أمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يبدأ بتوجيه هذا الأمر لزوجاته وبناته. وكأنه تأسيس لتأكيد قاعدة أو موضوع أساسي في السورة. فقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة. وكما هو معتاد، فإن النبي صلى الله عليه وسلم في مثل هذه المواضيع يبدأ بنفسه، فيبدأ بزوجاته وبناته، كما ذكر في خطبة الوداع، حيث قال: **"إن ربا الجاهلية موضوع تحت قدمي، وإن أول ربا أضعه هو ربا العباس."** وأيضًا قال: **"لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها."**

فبداية أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجاب كانت موجهة إلى زوجاته، ثم إلى بناته، وبعد ذلك يأتي دور نساء المؤمنين. ومن المعروف أن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم قد طبقن الحجاب بشكل كامل.

عندما نزلت آية الحجاب، قالت عائشة رضي الله عنها: "رحم الله نساء الأنصار." حيث خرجن إلى صلاة الفجر لا يعرفن من الغلس، أي بلباس الحجاب الكامل.

المسألة الأصلية هي: هل النقاب واجب أم مستحب؟ هذه مسألة طويلة ومعقدة، ولا تزال موضوع خلاف مستمر. هذا الخلاف يعود إلى زمن الصحابة، وما زال موجودًا حتى يومنا هذا. ومن ثم، فإن تفسير "يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ" يتصل بقول الله تعالى: "وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا"، وهو الآية التي وردت في سورة النور. ابن مسعود كان يفسر الزينة الظاهرة بالثياب، وكان يرى أن المرأة يجب أن تغطي وجهها وكفيها. بينما ورد عن ابن عباس أنه فسر الزينة الظاهرة بأنها الوجه والكفان.

مشكلتنا بشكل عام هي أننا دائمًا نتربص بالحكم الشرعي، فنبدأ نسأل: هل هو واجب أم مستحب؟ وكأن النية هي المشكلة الكبرى لدينا. فإذا كان واجبًا، سأحاول الالتزام به، وإذا كان مستحبًا، فلن ألتزم به أبدًا. وهذا ليس حال الأكابر ولا حال الصحابة أبدًا. الصحابة لم يكونوا يفرقون في العمل بين الواجب والمستحب.

ولاحظوا أنه تم الربط بين هذه المسألة والأذى، أيضًا تم وضعها في سياق أذى النبي صلى الله عليه وسلم. وهناك نقطة أخرى مهمة في هذه السورة، إذا انتبهت الفتيات إليها، سيشعرن برغبة في الالتزام بجميع الأحكام التي تتعلق بها. ما هي هذه النقطة؟ هل لاحظتم أن السورة

تحتوي على عنصرين متداخلين؟ العنصر الأول هو توقير النبي عليه الصلاة والسلام ورفع شأنه وبيان قدره، والعنصر الثاني هو توقير النساء.

توقير النساء كان موضوعًا مهمًا طوال السورة، حيث تعكس عناية ملحوظة بالنساء سواء من حيث الاهتمام بجبر الخواطر أو في الأحكام الشرعية. انظروا إلى الأحكام التي ذكرها الله للنساء، مثل قوله: "وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ" و"يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ". من هذه الزاوية، يمكننا أن نرى كيف أن توقير النبي عليه الصلاة والسلام جاء متزامنًا مع توقير النساء. وكأن الله سبحانه وتعالى قد أكرم النساء بنفس القدر الذي أكرم به النبي في هذه السورة من خلال هذه الأحكام. وعندما ألاحظ هذه الأحكام، أدرك أنها تعكس تكريمًا للمرأة ورفعًا لشأنها وصيانة لها وتقديرًا لمكانتها، مما يدعو النساء إلى حب هذه الأحكام.

قوله تعالى: **" يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ "**، تأملوا رحمة الله في قوله: **" ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ "**. ماذا يعني "أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ"؟ يعني أن هذا هو الأقرب ليدل على عفتهن وكونهن حرائر. في ذلك الزمان، كانت المرأة التي لا ترتدي الحجاب الكامل تُعتبر أمة، بينما المرأة الحرة كانت ترتدي الحجاب الكامل. أما الأمة، بسبب انشغالها في الأعمال المنزلية، فقد كانت تخفف من الحجاب ولا ترتدي مثل الحرة.

لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا (60)

بعد الحديث عن الحجاب، جاء الكلام عن المنافقين. ودائمًا يوجد ارتباط بين الحجاب والمنافقين. فالحجاب يكشف عن المنافقين بشكل مستمر. معركة الحجاب تلك مستمرة على مدار الساعة. ففي كل مرة تُفرض فيها قوانين الحجاب، مثلما يحدث في مدرسة أزهرية تفرض الحجاب على البنات، يظهر أهل النفاق ويتحدثون. يتساءلون: كيف يُفرض الحجاب؟ ولماذا؟ هل هو إجبار؟ ويتحدثون عن حرية الفتيات، قائلين إنه لا ينبغي فرض ذلك.

وكانت هذه هي "غزوة النساء"، وهي الحالة التي ستجتمع فيها الأحزاب ضدك، حيث يتجمع عليك الإعلام وأشخاص من أقاربك وأصدقائك ومن يحيطون بك، وكذلك وسائل الإعلام مثل التلفزيون والبرامج والمسلسلات والأفلام، فكل هؤلاء سيكونون جزءًا من تلك الأحزاب التي ستتجمع ضدك. وستظهر النفاق على الفور بمجرد أن تقرري توسيع ملابسك أو اتخاذ قرار بارتداء النقاب.

عندما تتخذين قرارًا بترك البنطلون، ستتجمع الأحزاب ضدك.

وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ: هم الذين يشيعون الإشاعات ويخيفون الناس.

لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ: يعني لننسلطنك عليهم.

ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا: يعني أمرك يا محمد أن تطردهم من المدينة طردًا.

مَلْعُونِينَ: أي مطرودين من رحمة الله تعالى.

أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا (61) أي إن الله سبحانه وتعالى سيسلط عليهم المؤمنين عاجلًا أو آجلًا.

سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (62).

وكأن هذه هي سنة الله، أنه سيأتي يوم مهما علت أصوات النفاق، ومهما كانت قوة المنافقين ومناصبهم، سينتقم الله منهم، وسيعلو المؤمنون. سيثأر الله من هؤلاء المنافقين.

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا(63)

الساعة فعلاً قريبة، سواء كانت الساعة الشخصية لكل منا، لأننا جميعًا نعيش فترة زمنية قصيرة، أو حتى الساعة الكبرى لقيام الساعة. فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "بُعِثْتُ أنا والساعة كهاتين" وأشار بإصبعه السبابة مع الوسطى. كيف يمكن أن يكون ذلك بعد ألف وأربعمائة سنة؟ دعونا نفهم المعنى. إذا نظرنا إلى إصبعه الطويل والقصير، سنجد أن الفارق بينهما ضئيل جدًا. لذا، يُقصد أن الوقت الذي مر منذ بعثته حتى اليوم هو بمقدار طول الإصبع القصير، بينما الزمن المتبقي حتى قيام الساعة هو بمقدار طول الإصبع الطويل.

إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ طردهم من رحمته وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (64) عذابًا أليمًا شديدًا.

خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (65)

هنا رد على القول بأن الله قد يلغي النار. هذا كلام عجيب يتعارض مع القرآن. فقد أخبر الله عن وجود النار وأنه سيعذب فيها الكافرين.

يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ

نسأل الله السلامة والعافية. الوجه هو أشرف شيء في الإنسان، وهو ما سيتقلب في النار.

يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (66)

أهم شيء في الحياة هو ألا تأخذ نصيحتي من شخص عابر. خذ نصيحة أهل النار. إذا أردت معرفة خلاصة الحياة، اجلبها لك من شخص يتحدث من داخل النار. فيقول: "ليتني رُدِدتُ ولا أكذب بآيات ربي. ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل."

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (67)

احذر أن تستمع إلى كلام أي شخص يأمرك بمعصية، مهما كان هذا الشخص كبيرًا أو صغيرًا، قائدًا أو شخصًا تحبه. فلا يُرضي أحدًا أن تعصي الله تعالى أبدًا.

رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (68)

بدأوا يدعون على بعضهم البعض بعد أن انتهت حياتهم، فبعد الحب الذي كان بينهم، تحولت هذه المشاعر إلى عداوة ودعاء على بعضهم في نار جهنم. فلا تظن أن هناك من سيكون حبيبك في المعصية. أول من سيبيع بعضهم في الآخرة هم العصاة. يقول الله تعالى: الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا (69).

هناك شيء عجيب جدًا في دفاع الله عن سيدنا موسى. أنتم تعلمون أن هذه الآية نزلت في سياق ما حدث للنبي عليه الصلاة والسلام. ما الذي حصل؟ تعرض أصحاب موسى له بأذى، متخيلين، حتى بعد الأذى الذي عاناه من فرعون والكفار، فإن بعض أصحابه أيضًا آذوه. لذا، واجه سيدنا موسى أذى شديدًا. سبحانه وتعالى، فلا تكونوا كالذين آذوا موسى.

زمن سيدنا موسى كان هناك حكم شرعي يسمح للرجال بالاغتسال أمام بعضهم البعض، وهذا كان جائزًا في شريعته، حتى لو كان عاريًا تمامًا.

لكن سيدنا موسى كان شديد الحياء، فلم يكن يحب أن يرى عورته أبدًا. لذا، كان يغتسل وحده. لكن قومه آذوه وقالوا: "لماذا يغتسل وحده؟ لا بد أن هناك عيبًا فيه".

فماذا حدث؟ سبحان الله، أراد الله أن يبرئ سيدنا موسى. بينما كان يغتسل، وضع ثوبه على حجر، فجرى الحجر وأخذ الثوب وابتعد به، وهذا حدث بأمر الله. بينما كان سيدنا موسى يجري وراء الحجر، كان ينادي: "ثوبي يا حجر، ثوبي يا حجر". استمر الحجر في الجري حتى مر أمام الرجال الذين كانوا يتحدثون عن سيدنا موسى. وبما أن رؤية الرجل عاريًا أثناء الاغتسال كانت جائزة في شريعتهم، رأى قومه موسى في أحسن هيئة، حيث كان الرجال في ذلك الوقت يتمتعون بلياقة بدنية جيدة.

عندما رأوه، برأه الله تعالى، ثم وصل سيدنا موسى إلى الحجر وأخذ ثوبه ليغطي نفسه، وبدأ يضرب الحجر بشدة. وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام إنه ضرب الحجر حتى كانت فيه ندبات من شدة ضرب موسى عليه السلام، وذلك لأن موسى كان شديد الحياء.

وكانت الرسالة التي تلي ذلك أن كل من يتعرض للأذى، إن شاء الله، سيبرئه الله. فإذا لم يكن ذلك في الدنيا، فسيكون في الآخرة، وسينال حقه كاملًا.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70)

هذه هي خلاصة الحياة، واجبكم هو تقوى الله وقول القول السديد.

يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.

يعني أن الله يصلح أعمالكم، أي يجعل الأعمال الجيدة التي تحاولون القيام بها صالحة وخالصة لوجهه الكريم. ويزيدكم من فضله، بشرط أن تحاولوا.

وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ.

يُفهم هنا أن الله سيغفر لكم ما سبق من الذنوب وما سيأتي من المعاصي، ويحميكم منها.

وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)

هذه الآية تصحح لنا معنى الفوز العظيم؛ فكل ما يُعتبر فوزًا دون طاعة الله ورسوله لا يُعتبر فوزًا عظيمًا.

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ.

ما المقصود بالأمانة هنا؟ الأمانة تشير إلى التكليف، أي أن يكون هناك أمر ونهي، ومقابل ذلك ثواب وعقاب وإرادة في أن تقوم بفعل أو عدم فعله. لقد عرض الله هذا الأمر على السماوات والأرض والجبال، بأن تؤمروا وتنهوا، وفي المقابل هناك جنة ونار وثواب وعقاب. فلو لم تختاروا التكليف، فسوف تكونوا مجبولين على الطاعة ولا اختيار للمعصية. لكن بدون جنة أو نار، في النهاية سيتحول الأمر إلى رماد، أي لا شيء.

رفضت السماوات والأرض والجبال حمل هذه الأمانة، فقالوا إنهم يفضلون الطاعة الجبلية، أي أن يظلوا في تسبيح دائم وفي النهاية يتحولوا إلى تراب، دون جنة أو نار.

المشكلة ليست في وجود التكليف أو عدمه، بل السؤال الأهم هو: هل تعتقد أنك تعرضت للظلم في هذا التكليف؟ أولاً، الله سبحانه وتعالى كلفك بما تطيق. وثانيًا، جعل الحسنة بعشر أمثالها، وثالثًا، ضمن لك العون والمساعدة بنفسه وملائكته. فقد أنزل لك كتبًا، وأرسل لك رسلًا، ويسر لك الشريعة وجعلها ميسرة. كما فتح باب التوبة والمغفرة، لذا لم يُكلف إلا بمقدورك.

إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا (72)

هذا الكلام يتعلق بالإنسان الذي لم يلتزم بهذه الأمانة، لأنه اختار الظلم والفجور وابتعد عن شرع الله.

سبحانك اللهم ربنا وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.